5

نيل م. روزندورف
Neal M. Rosendorf

العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة: المفاهيم والتاريخ ودور أمريكا

obeikandl.com

إن العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة أكثر أبعاد هذه الظاهرة اتساعاً وبُعداً، إذا نحن حدَّدنا فهمنا للعولمة بالخبرة الإنسانية. إنَّها متشابكة تشابكاً عميقاً مع الأبعاد الأُخرىٰ التي حدَّدها كيوهين Keohane وناي Nye في الفصل الأول من هذا الكتاب. وكما يقول المنظِّر الثقافي جون توملنسن John Tomlinson: «إن عمليات التحول الضخمة في زماننا والتي تصفها العولمة لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً حتى يتم إدراكها من خلال مفردات متعلِّقة بالمفاهيم الثقافيَّة. وكذلك... تغير هذه التحولات خيوط الخبرة الثقافيَّة ذاتها وتؤثِّر بالفعل في إحساسنا بما هي الثقافة حقاً في عالمنا الحديث»[1].

تستتبع العولمة العسكريَّة انتقال الناس والبُنى الاجتماعيَّة / السياسيَّة غالباً، وبصورة مؤقتة غالباً، أَو إلىٰ أجل طويل أحياناً، أَو دائمة ـ قارِن بروما الاستعمارية مثلاً، والمدن والبلدات التي أَسَّستها، أَو بالاتساع الشاسع من بريطانيا إلىٰ شمال أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا الوسطى. ويصح الشيء ذاته علىٰ التوسع الاستعماري العسكري والعالمي الذي سبق روما ـ إسكندر

اليونان، والخلافة الأموية الإسلاميَّة، وإسبانيا، وبريطانيا، وفرنسا. وفي الواقع حتى التهديد بالفناء النووي خلال الحرب الباردة، التي لم تكن تحتاج إلىٰ نقل الجيوش، كان له تأثير ثقافي هام في حركة العولمة، فقد اشترك الناس اليائسون من جميع أنحاء العالم بالقلق من احتمال القضاء عليهم بالضغط علىٰ بضعة أزرار[2].

يشبه البُعد الاقتصادي كثيراً انتقال القِيَم الاجتماعيَّة والبُنى الفكرية وذلك بانتقال الأموال والتجارة. فكِّر مثلاً بالرابطة التي رسمها ماكس ڤيبر Max Weber بين نظرة البروتستانت إلىٰ العالم ونظرة الرأسمالية في كتابه الشهير حول الموضوع[3]. والآن فكِّر بانتشار الرأسمالية العالميَّة المتزايد كنظام اقتصادي مسيطر في القرن الحادي والعشرين. كلما وسَّعت الرأسماليَّة انتشارها، تسعىٰ بعض القوىٰ الاجتماعيَّة والسياسيَّة والفكرية التي تكمن وراءها لتسلك طريقها، مثال ذلك، حكم القانون، وتقدم الموهوبين وتبجح الذرائعية الفلسفية (مثال «السياسة فن الممكن») والبراغماتية، والوضع الاجتماعي والسياسي المتقدم لبرجوازية رجال الأعمال علىٰ حساب الطبقات الحاكمة التقليديَّة. فكِّر أيضاً بالتحدي السافر والكبير، والذي لم يعد منتشراً في النهاية، للأجندة السياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة للرأسماليَّة، وهو الشيوعية. وبالفعل لقد وضع كل من آدم سميث Adam Smith وكارل ماركس Carl Marx نظاميهما علىٰ أنَّهما نهائيان وعالميان في مجاليهما.

وفي ما يتعلَّق بالعولمة البيئيَّة التي تكون نتاجاً إنسانياً بمقابلتها بالقوىٰ الطبيعيَّة (إلاَّ إذا اعتبر المرء الناس بكل بساطة أحد وجوه العالم الطبيعي)، الأوبئة بشكلها الواسع نتيجة للسفر والهجرة البعيدين، يكفينا هذا المثال. ونذكر مثلاً آخر عن التسخين الأرضي الذي يعزىٰ جزء هام منه إلىٰ سعي جنسنا المنتج والمستهلك بدون اهتمام، من الموقد في البناء إلىٰ المعامل وإلىٰ الطرقات السريعة التي تعيق حركة المرور فيها مركبات للاستخدام الرياضي.

لقد عُولج كثير من هذه الأبعاد المترابطة بشكل منفصل في فصول أُخرىٰ من هذا الكتاب. ولكن حتى بدونها، لا تزال العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة تترك الكثير للتأمّل: المعلومات، الفن والتسلية، الدين والفلسفة، تنظيم المجتمعات والطبقات، واللغة، والسياسة، والهجرة ونكتفي بتسمية النواحي الرئيسيَّة فقط.

إن محاولة معالجة كل من هذه العناصر في العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة بدوره، ولو معالجة فضوليَّة، قد تنتج فصلاً يحتل معظم هذا الكتاب. لذا فمن أجل أن أكون عملياً أبدأ برسم مسار عام تاريخي وفكري لهذا البُعد. يفحص ميزان هذا الفصل العامل الوحيد والأهم والذي يؤثِّر في العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة في العصر الحاضر والمستقبل القريب: ألا وهو القوة الثقافيَّة العالميَّة للولايات المتحدة.

ليست الثقافة الأمريكية بشكل من الأشكال الوحيدة ذات الحضور العالمي في عالمنا المعاصر. يلاحظ العالم الاجتماعي يوغيش آتال Ogesh Atal مثلاً، «أن ثقافة الهند ـ وهي بلدي ـ وصلت إلىٰ عدد من البلاد في العالم»[4]. فالفنون الهندية والموسيقى والأفلام والمطبخ وحتى الدِّين (في البداية مع إطلاق الهندوس لدين هاري كريشنا Hare Krishna) لقد وجدت جماهير وكانت موضوعاً لإعادة تفسيرها محلياً (أشهر مثال تهجين فرقة البيتلز بمايسترو السيتار ـ وهي آلة موسيقيَّة هنديَّة ـ راڤي شانكر Ravi Shankar) في جميع أنحاء العالم. ولكن الولايات المتحدة ـ شئنا أم أبينا ـ هي من يحدِّد الخطى في كثير من البُنى الاجتماعيَّة والثقافيَّة العالميَّة، وذلك لأن الولايات المتحدة تمتلك قدرة لا تُضاهى علىٰ الوصول إلىٰ وسائل إنتاج ونشر أفكارها وطراز حياتها في جميع أنحاء العالم من جهة، ولأن الولايات المتحدة تمتلك مجموعة فريدة من الخصائص الثقافيَّة والتاريخية التي تمكِّن من ذلك النشر. هذا لا يعني أن العالم مدموغ بتجانس ثقافي، لكنه يعني أن الكثير الكثير من زوايا العالم يجب أن

يشار إلىٰ الثقافة الأمريكية علىٰ أساس نظامي كعنصر يوازي الثقافة المحلية.

العولمة الثقافيَّة ـ ما ينتج عنها وما لا ينتج

ماذا ينتج عن العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة بالضبط؟ فرض سيطرة الأشكال الاجتماعيَّة والثقافيَّة والتكنولوجيات الجديدة علىٰ التابعين؟ أم تحويل ومزج يؤثِّر في كل المشاركين؟ هل النتيجة هي تجانس الثقافة؟ أم هل يحدث تفاوض بين المسيطر والتابع فتترك الثقافات المحلية متميزة إن هي تم تعديلها؟

إن الجواب القصير عن كل هذه الأسئلة هو «نعم». من الممتع أن أقل نوع من العولمة الاجتماعيَّة الثقافيَّة انتشاراً بشكل ثابت هو فرض السيطرة، ومع ذلك فإنَّه النوع الذي يثير الاهتمام الأكبر. فعبر العصور التاريخية المختلفة يستطيع المرء أن يجد أمثلة للقوة المسيطرة التي تفرض بالقوة ثقافتها علىٰ المجتمعات التي تستقبلها. علىٰ سبيل المثال، نشرت الإمبراطورية الرومانية الفن اليوناني الروماني والعمارة والقوانين وألعاب التسلية وشبكات الانتقال لتصل الجميع أفراداً وجماعات عبر قارات ثلاث. ومع ذلك فإن روما، وهي التي تحتوي علىٰ عنصر قوي من جميع الثقافات في قلبها (الممثَّل في خلط التراكينيان والدتروسكان والتأثير اليوناني لتولد دولة المدينة الرومانية) كانت هي ذاتها يجري عليها عمل ثقافي من ممتلكاتها الاستعمارية البعيدة. وأحد أهم هذه الظواهر هو التدفق الثقافي من المحيط إلىٰ المركز الذي حدث في مجال الدِّين. يستطيع المرء أن يرى في روما، المدينة الكبيرة، طوائف هامَّة تكرس نفسها إلىٰ ميثراث آسيا الوسطى، وأوزيريس مصر، ويهوه اليهودي إضافة إلىٰ بقايا بانثيون الآلهة اليونانية، (وكان يوجد عدد كبير ممن يخافون الإله من غير اليهود الذين وضعوا أنفسهم مع التجمعات اليهودية المرحِبة بهم)، والشكل الآخر لليهودية، عيسى المسيح المقدس. ومع ذلك، فمن أجل التنظيم الكلي للبنية المجتمعية والمادية والقانونية الذي حدث في الإمبراطورية (والملخص بالإعلان أن جميع الناس في الإمبراطورية هم مواطنون رومان خلال حكم كراكلا Caracalla في

أوائل القرن الثالث ميلادي) ولم تصبح الأقاليم المفردة كلها مجرد نسخ من روما. وحافظ معظمها علىٰ خصائصه المحلية والفريدة علىٰ الرغم من أن الحضور الروماني كان مؤثِّراً في تلوين هذه الخصائص[5].

هذه المجموعة المعقدة من التفاعلات الاجتماعيَّة والثقافيَّة التي تحدد المدىٰ الأكبر أو الأقل للاستعمار الرسمي وغير الرسمي لإسبانيا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، وقد وصفها علماء الاجتماع مثل جان نيدرڤين بيتريس Jan Nederveen Pieterse بالتهجين Hybridization (لم يكن هذا اعتذاراً منه عن الاستعمار ـ فقد أكَّدت القوى الاستعمارية الرسمية تفوق ثقافاتها بقوة، وغالباً بوحشية). بينما يقبل بيتريس Pieterse فكرة «التزامن الثقافي» (وهي طريقة أُخرىٰ للتعبير عن التجانس) ذات علاقة، فقد استنتج أنَّها «غير مكتملة أساساً». وهو يسأل: «كيف يمكن أن نتوصل إلىٰ عبارات لظواهر مثل الملاكمة التايلندية تقوم بها فتيات مغربيات في هولندا، وموسيقى الراب الآسيوية في لندن، وحلويات الباجيل الإيرلندية والتاكو الصيني والماردي غراس الهندي في الولايات المتحدة»؟ وجواب بيتريس Pieterse أن «الخبرات الثقافيَّة، في الماضي والحاضر، لا تتحرك باتجاه وحدة ثقافيَّة وقياسيَّة»[6]. ويقول آرجون أبوراداي Arjun Appuradai بصراحة إن «العولمة ليست قضية تجانس ثقافي»[7].

يستعمل رولاند روبرتسن Roland Robertson عبارة «المدينة الواحدة Unicity» مقابل «التماثل Uniformity»، ليصف عالماً تناقش فيه المجتمعات منفردة وجودها وهويتها وأعمالها في سياق «مكان واحد»[8] مسيطر. واستخدم آخرون عبارة «العالميَّة المحلية glocalization» ليصفوا مفهوماً مماثلاً «يعتبر السياق المحلي والقومي والعالمي للعمليات التواصلية بين الثقافات»[9]. يعتقد يوغيش آتال Yogesh Atal أنَّه بينما كانت في الفترة الاستعمارية تفتح الأقاليم المعزولة بواسطة «فتحة واحدة» للقوة المسيطرة، فإن نهاية الاستعمار جلبت «فتحات متعددة» «لتصل هذه المجتمعات مع عدد من المجتمعات الأُخرىٰ، متقدمة ونامية»[10].

فالثقافات القومية وتحت القومية في حالة مستمرة من التغير بدرجات متفاوتة وهي تتصل مع ثقافات أُخرىٰ. فالعربي المعاصر في الشرق الأدنى والشرق الأوسط هو مجموع، ليس الثقافات الفطرية وحسب، لكنَّه علىٰ درجات متفاوتة من الأثر الذي خلفته ثقافات اليونان والرومان القديمة والإمبراطوريات البيزنطية والساسانية الفارسية، وأوروبا العصور الوسطى، والآن الولايات المتحدة. وبالفعل إن التفوق العربي في العصور الوسطىٰ بالعلوم كعلم الفلك قائم علىٰ تركيب واع للتقاليد العلمية اليونانيَّة والفارسية والهنديَّة[11]. ومع ذلك لا يجادل أحد أن الإقليم قد توقف عن امتلاك مجموعة متميزة من الهويات الثقافيَّة تجعله ينفرد عن باقي أجزاء العالم.

منظور تاريخي

إن عبارة رولاند روبرتسن Roland Robertson «المكان الوحيد» ظلت تتردَّد منذ زمن طويل. لم تمنعنا حقيقة أن للإنسان رجلين فقط، ويتحرَّك نتيجة لذلك بمعدل بطيء نسبياً إذا قارناه مع معظم الحيوانات الثديية الكبيرة، من أن نكون بطل العدائين علىٰ الأَرض. فمنذ الزمن الذي ظهر فيه الإنسان العبقري قبل 1,7 مليون سنة بدأ يتجول. وفيما بين 20000 و13000 سنة خلت وصل الإنسان القديم نصف الكرة الأَرضية الغربي، مجتازاً العالم بصورة رائعة[12]. ولكن بينما يتزايد الدليل علىٰ وجود اتصالات متقطعة تالية بين نصفي الكرة الأَرضية الشرقي والغربي، بعيداً عن الغزوات الشمالية المتفق عليها، والتي يبدو أنَّها كانت محصورة تقريباً علىٰ شكل غزوات من الأول إلىٰ الثاني، فإن الشعوب القاطنة في نصف الكرة الأَرضية كان تعيش منعزلة عن بعضها بعضاً بصورة فعَّالة من حيث أي أثر ثقافي دائم حتى كريستوفر كولومبس Christopher Columbus وخلفائه خلال عصر الاستكشافات الأوروبية التي وصلت بشكل دائم العالم القديم والجديد معاً[13].

لذا عندما نتكلّم عن العولمة الثقافيَّة في الفترة السابقة علىٰ 1492، فإنَّنا

نشير إلىٰ الظواهر التي حدثت ضمن الحدود الواسعة لقارات النصف الشرقي للكرة الأرضية، وباستخدام معيار «المسافة القارية المتعددة» للعولمة الذي وضعه كيوهين وناي في الفصل الأول، نستطيع أن نعرف ظواهر العولمة «الرقيقة» كإمبراطورية الإسكندر الكبير التي جلبت معها الثقافة الهلينية التي في الوقت نفسه فتحت للمفكرين اليونان رؤية العالم الموحد سياسياً وثقافياً، والتي من الممكن أنَّها لم تكن في السابق عملية كما لم تكن مقبولة»[14]؛ والإمبراطورية الرومانية وخليفتها البيزنطية[15]؛ والخلافة الأموية التي نشرت الإسلام من إسبانيا إلىٰ القاهرة إلىٰ الهند وما وراءها؛ وطرق التجارة في آسيا الغربية (حوض تاريم وواحة طرفان) التي نشرت الحرير والبضائع الأُخرىٰ، ومجموعة من التقاليد الدينيَّة، والوعي المتبادل الخافت في ما بين الإمبراطوريات التي اتسعت من المحيط الأطلسي إلىٰ بحر الصين[16]. وفي الواقع يؤمِّن طريق الحرير مثالاً جوهرياً عن «كيف انتشرت الأَفكار والتقنيات عبر التاريخ مع طرق التجارة التي كان فيها التجّار بين الناشرين الرئيسيين»[17].

إن جزءاً مما صنع عناصر «العولمة الرقيقة» هذه، هو أن تلك المسافات التي نعتبرها غير ذات شأن كانت ضخمة، فكانت مهمة هرقلية أن يحاول نقل معلومات بمعدل 50 كيلومتراً في اليوم[18]. يضاف إلىٰ ذلك، أن التحول الهليني والروماني قد أثَّر أعظم تأثير في البُنى التحتية المادية الرسمية (فمثلاً كرست الأبنية والساحات للواجبات الرسمية) والجمال والفكر وطرز حياة النخبة من السكان المحليين. فعلىٰ سبيل المثال حكم البطالسة اليونان مصر عدة قرون، وحوت الإسكندرية المكتبة الرائعة التي أسَّسها الإسكندر الكبير. لكن المصريين العاديين عاشوا معظم نواحي حياتهم كما عاشوها قبل مجيء الغزاة[19]. وكان للأمويين أطول الآثار بقاء فيمن تغلبوا عليهم فقد زرعوا دينهم الدائم، كما زرعوا في معظم إمبراطوريتهم اللغة (ولو في أقل الحدود لأغراض الصلاة)[20].

لعل أكثر أشكال العولمة انتشاراً قبل 1492 وبالتأكيد أطولها بقاء هو انتشار المسيحية والإسلام في أجزاء من أوروبا وآسيا وأفريقيا (وامتد اليهود كشعب طولاً وعرضاً في النصف الشرقي من الكرة الأَرضية، ولكن بعد سيطرة الدينين الآخرين توقفت اليهودية عن المنافسة النشيطة لكسب متدينين جدد)[21]. والفرق الرئيسي بين انتشار هذه الأديان وانتشار أشكال العولمة هو أنَّها لم تكن محصورة بالطبقة النخبة. وبجمع جاذبية الرسالة العريضة مع فرض العلوم الدينية أخيراً من قِبل حكّام كأديان دول، والمتغيرات المسيحية والإسلامية تبنَّتها المجتمعات، فقيرها وغنيها يعبدان نفس الإله، ولكن هذا بالطبع لا يمنع المسيحيين من قتل المسيحيين ولا المسلمين من قتل مسلمين آخرين، لكن مجموعة معتقدات عامة تعطي نقطة إنطلاق لتطوير بعض الأفكار المشتركة حول قضايا المبادئ الأخلاقية والمعنوية.

في أعقاب الغزوات الكولمبية حدث عصر جديد من العولمة الثقافيَّة كنتاج للاستعمار بشكل واسع، وأَصبحت عملية العولمة «عالميَّة» حقاً لكونها امتدت علىٰ الكوكب. إن اصطدام التوسعية الغربية بالمجتمعات علىٰ نطاق واسع في الأمريكتين وأفريقيا وآسيا الغربية والوسطى والشرقية جعل التفاوض الثقافي المعقد بين الغازي والمغلوب ضرورة. وعلىٰ مدىٰ أربعة قرون تلت، سافر ملايين الناس، أحراراً وعبيداً، آلاف الأميال ليعيشوا، ويعملوا ويقتلوا ويموتوا، وليخالط بعضهم بعضاً وكذلك السكان الأصليون. حتى القرن التاسع عشر كان الأوروبيون والأفارقة هم أول من انتقلوا، وبعد ذلك انضمت أعداد كبيرة من شرق وجنوب آسيا، وبشكل رئيسي من الصينيين والهنود إلىٰ صفوف مجموعات المهاجرين من قارات كثيرة.

كانت تكنولوجيا المعلومات والانتقال مساعدة لهذا التوسع الكبير لمجال العولمة الاجتماعيَّة والثقافيَّة. فاختراع الكتابة سمح بانتقال الأفكار خارج حدود الزمن الحقيقي وأبعد كثيراً من مجال صوت الكلام. وزادت آلة الطباعة

المتحرِّكة زيادة كبيرة في حجم المادة المكتوبة المتوافرة وخفضت كلفتها[22]. وأمكن أن تنتقل الصفحات والنشرات والكتب إلىٰ مسافات كبيرة. ومكَّنت السفن الأفضل الانتقال الواسع للناس والأفكار والبضائع. وحوالى سنة 1000 ميلادي استطاعت المراكب الإسكندنافية الطويلة التنقل بين الجزر في طريقها عبر مياه شمال الأطلسي لتصل إلىٰ أمريكا الشمالية، حتى قام بحارتها بالاحتفاظ بمستعمرات مؤقتة بأظافرهم. لكن تكنولوجيا بناء السفن والإبحار في القرن الخامس عشر وما بعده سهلت الرحلات البعيدة في المحيط مع أطقم أكبر من الملاحين وتركت أمكنة لنقل الشحن الهام[23]. واستطاعت الكتب والبضائع المصنعة والمواد الغذائية أن تجد طريقها حول العالم. وإذا تركنا التأثير الاقتصادي البحت، فقد شجع هذا تصدير واستيراد المصنوعات الثقافيَّة كالكتب والمطابع وأقمشة الملابس وتجهيزات المنازل ومكونات المطبخ الحديث. ومع مرور الوقت، تضم النخبة في أوروبا والولايات المتحدة الأشياء الجمالية الصينية واليابانية، وفيما بعد تضم النخبة في الهند واليابان أشياء من طراز الحياة للناس الغربيين. وأَصبحت الإسبانية والبرتغالية والفرنسية وخاصة الإنكليزية لغات في قارات متعددة في أعقاب المستعمرين البحارة. فقد زرع المستعمرون بذور موت إمبراطورياتهم بتصدير أفكار التحرر القوية للقومية والاشتراكية إلىٰ الشعوب الخاضعة لهم.

عصر التواقت The Age of Simultaneity

بينما كانت أجزاء من الشعوب المعزولة سابقاً تهتم وتتأثَّر ببعضها بعضاً بدرجات متفاوتة من الحماس، فقد كانت بحاجة إلىٰ قفزة كبيرة في التصور لتفكر بما كان يجري في الممالك البعيدة في تلك اللحظة ذاتها. لقد قصّرت السفينة التجارية والسفينة السريعة زمن السفر عبر المحيط ولكن بقي الزمن يقاس بالأسابيع. لكن البرق والهاتف والمسجل، وبعد ذلك الصور المتحركة والراديو كلها أعطت ثورة في الإدراك الفوري الذي عمَّق بشكل كبير خبرات

الثقافات الأُخرىٰ. وأضافت عنصر الوقت الحقيقي سواء كان فعلياً أَو مثلياً (كما في حالة التسجيلات والصور المتحركة) إلىٰ الاتصالات البعيدة. (السفر جواً وخاصة الطائرات النفَّاثة لنقل الركاب قد تؤكد الإحساس بالوقت الحقيقي للاتصالات عبر المسافات الطويلة، لكن الاتصالات الكهربائية هي المفتاح لسد هذه الفجوة). يصف المؤرخ الثقافي ستيفن كيرن Stephen Kern هذا بالتواقت (أي حدوث الأشياء بنفس الوقت)، وفيه يكون الناس المنتشرون بالعالم متحدين بتكنولوجيا الاتصالات الفورية يمارسون إحساساً مشتركاً بالوقت والمكان(24). إن التواقت، باعتماده علىٰ مستجدات الثورة الصناعية، نقطة فارقة للفترة الممتدة في أواخر القرن التاسع عشر إلىٰ الحاضر تضع خطاً فاصلاً بين هذه الفترة وبين العصور التاريخية السابقة من العولمة الثقافيَّة.

تقدم كارثة سفينة التايتانيك مثالاً عملياً عن التواقت. اصطدمت السفينة بالجبل الجليدي الساعة 11,40 مساء في 14 نيسان 1912؛ وفي الساعة 12,15 صباحاً أصدر القبطان نداء الاستغاثة (الطوارئ) من راديو السفينة؛ في الساعة 10,6 صباحاً التقطت السفينة كارباثيا Carpathia الإشارة وأبحرت باتجاه السفينة المصابة إصابة قاتلة، التايتانيك، وفي الساعة 1,20 صباحاً كانت أخبار كارثة التايتانيك تبث برقياً حول العالم. وفي الصباح التالي كانت ملايين الناس في عدد من القارات يحزنون، فقد جمعهم معاً البرق والهاتف والصحف التي تطبع إلكترونياً الأخبار المجمعة فوراً علىٰ مطابع عظيمة السرعة(25).

لنفكِّر بالصورة التالية للعولمة الثقافيَّة في الألفية الجديدة: احتفالات ليلة رأس السنة الجديدة 2000 من جميع أنحاء العالم نقلت بالتلفزيون مباشرة في الولايات المتحدة علىٰ شبكة CNN وشبكة PBC من بين قنوات أُخرىٰ. وخلال ساعات الصباح المتأخرة من 31 كانون الأول 1999 علىٰ الساحل الشرقي الأمريكي استطاع المرء أن يشهد الألعاب النارية ويسمع رنين الأجراس ويرىٰ فورة الأنشطة المسلية بينما يدخل شرق آسيا في الساعات الأولىٰ من 1 كانون

الثاني 2000. يستطيع المشاهدون أن يشهدوا أعجوبة تقنية أثناء انتقال الوصل التلفزيوني من قطر إلىٰ قطر بسرعة مذهلة.

وسواء عرف المشاهدون من أنحاء الكوكب أم لا، فإنَّهم كانوا يمارسون ربما المثال الدرامي الأعظم في تاريخ الإنسانية حتى تاريخه للتواقت الذي قال به كيرن Kern. ماذا جلب هذا التواقت في ليلة الألفية إلىٰ جماهير التلفزيون حول العالم؟ في وسط هذا الصخب الاحتفالي، قدمت لحظة واحدة كبسولة فيها عنصر متفوق من العولمة الثقافيَّة المعاصرة. وعندما بدأ القرن الجديد في سنغافورة كان نجم البوب المحلي بشعره الملون بالأشقر وبألبسته السوداء الأنيقة يرقص علىٰ مسرح واسع ويغني أشهر أغاني البوب، الأغنية اللاتينية ـ الأمريكية «Living La Vida Loca» لجمهور يشجعه بالهتاف. ولاحظ معلق القناة PBC ساخراً: يبدو أنَّه لا تخلو زاوية من الكرة الأَرضية من ريكي مارتن Ricky Martin. وكان مطرب من شرق آسيا يغني لحناً باللغة الإسبانية والإنكليزية لمغني بوب إسباني أمريكي مشهور في جميع أنحاء العالم وذلك بفضل قوة التوزيع لشركة تسجيلات كولومبيا Columbia وهي ذاتها شركة فرعية من شركة سوني اليابانية، كانت تذاع لعبته «جهود السنة الجديدة» مباشرة إلىٰ الولايات المتحدة بين أماكن أُخرىٰ. لا تظهر هذه اللحظة قدرة تكنولوجيا الاتصالات علىٰ نشر المعلومات وربط الناس بعضهم ببعض فقط، لكنها تظهر أيضاً جماعية وتنوّع التكيّف مع الثقافة الأمريكية. وهذا الربط بين تكنولوجيا الاتصالات المتطورة دوماً والثقافة الأمريكية الشعبية كان دافعاً رئيسياً في العولمة الثقافيَّة للقرن العشرين، ويتابع تشكله ليكون هاماً كذلك للكثير من القرن الجديد أيضاً.

القوة العالميَّة للثقافة الأمريكية الشعبية

بينما يذهب ستيورات هول Stuart Hall بعيداً في مساواة العولمة الثقافيَّة بالأمرَكَة (ومن ثم بالتجانس)، فهو علىٰ حق تماماً عندما يصف المجال الثقافي

العالمي المعاصر بأَنَّه «تسيطر عليه الفنون المرئية والتصويرية. . . يسيطر عليه التلفزيون والأفلام والصورة والتصور وأساليب الإعلانات الكثيرة»[26]. إنَّها مملكة الثقافة الشعبية، وإنَّها هنا حيث تمتلك الولايات المتحدة تفوقاً كبيراً علىٰ جميع الدّول الأُخرىٰ.

سوف تكون الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين بكافة الاحتمالات القوة العظمى الوحيدة في الثقافة العالميَّة إلىٰ الحد الذي كانت عليه في القرن العشرين علىٰ الأقل، ويحتمل أن تكون أكثر. وبناء علىٰ سوابق تاريخيَّة، سوف تسيطر الولايات المتحدة سريعاً علىٰ أية وسيلة اتصالات جماهيريَّة جديدة قد تتطوَّر، ولن تخسر الولايات المتحدة أية أَرضية في أية منطقة تسيطر عليها الآن. وسوف تكون هذه السيطرة ضد التراجع وضد الكوارث الديلوماسية. ودور الأحداث هذا ممكن لأن الولايات المتحدة قد أقامت سيادة مسيطرة علىٰ تقنيات التسلية والبرمجيات في القرن العشرين؛ وتمتلك مزايا فريدة تعطي أعصاباً قوية مرعبة في هذا المجال؛ ولا يوجد قادمون جدد في الأفق، ولا يحتمل أن يوجد[27]. لقد حافظت الولايات المتحدة علىٰ قيادة آمرة في السباق الثقافي والتسلية عملياً منذ أن انضمت إليه بحماسة (بسبب جمع شجاعة المدراء الأمريكيين وظروف خارجية مساعدة كالحرب العالميَّة الأولىٰ والثانية).

والآن إن أحدث حَمَلة لواء هذا المركز ومعززيه هم: مايكل جوردان Michael Jordan، وحرس الشواطئ Bay Watch ونايك Nike، وماكدونالدز MacDonald's وديزني Disney، وبريتني سبيرز Britney Spears، وتيد تيرنر Ted Turner، وبيل غيتس Bill Gates.

الثقافة الشعبية مفهومة علىٰ أَنَّها نتاج للمجتمع ككل متأصِّل في الولايات المتحدة في أعقاب الحرب الأهلية. والظواهر التي توحدت بشكل فريد في ذلك الحين (وفي بعض الطرق، مع متغيرات حتى الوقت الحاضر) في الولايات

المتحدة وأعطت الثقافة الشعبية شكلها هي: تصنيع سريع، ونمو مدني، وجماهير الملونين الذين تحرروا حديثاً، وتدفق المهاجرين من أوروبا الشرقية والجنوبية، وبدء التعليم الإلزامي الشامل، وخلق وسائل جديدة للاتصالات العامَّة[28].

كانت المستعمرات الأنغلو ـ أمريكية، والتي ستصبح أخيراً الولايات المتحدة، منذ البدء أعراقاً وثقافات متعددة. ففي سنة 1700 كان السكان بين نهري الهدسون والديلاوير من المستوطنين الهولنديين والإنكليز والألمان واليهود والفرنسيين والوالونيين والأفارقة والسويديين والإسكتلنديين[29]. وكما قالت إحدىٰ الدراسات، أمريكا «دائماً تواجه الحاجة لخلق ثقافة معيارية لا تهدد معظم أفراد المجتمع بقليل أَو كثير. وإلىٰ الحد الذي «تجاوزت» فيه مثل هذه الثقافة الأوامر الناجمة عن الفروق بين الثقافات الأمريكية المتنوعة فإنَّها كانت بذلك أيضاً أكثر المنتجات ملاءمة للتصدير»[30] إن كانت أمريكا متعددة الثقافات في أوائل تجسيدها، فإنَّها عند دخول القرن العشرين كانت خليطاً متعثراً من الناس الذين تجمعوا من أربعة أركان الأَرض ـ ففي سنة 1910 كان 75٪ من سكان نيويورك وشيكاغو وكليفلاند وبوسطن مهاجرين أَو أولاد مهاجرين[31] ـ وجعل هذا كثيراً من الأمريكيين من أحفاد البروتستانت من أوروبا الشمالية يقلقون من «الانتحار العرقي»[32]. فمعظم هؤلاء الناس يكدون ويتوصلون إلىٰ أجور عالية نسبياً بالمقارنة مع العمَّال في بلاد أُخرىٰ، ولديهم الوقت والميل إلىٰ صرف بعض أجورهم علىٰ التسلية والفراغ. واستمر هذا الوضع بصورة واسعة حتى يومنا هذا.

من غير المدهش أن الولايات المتحدة بتركيبتها السكانيَّة تستقبل بقوة المؤثِّرات الثقافية الخارجية، وغالباً ما تدمجها في النسيج الثقافي الأمريكي. وغالباً ما اختلطت إسهامات ثقافة ما بإسهامات ثقافات أُخرىٰ وكونت هجائن قوية بصورة خاصة. فاجتماع الموسيقى الشعبية الأفريقية والكلتية مثلاً أنتج

المصطلحات الموسيقية الشعبية المعروفة بالبلوز blues، والريفية الغربية والروك أند رول. ورحبت هوليوود بأجيال من الفنانين الغرباء من أمثال فرتز لانغ Fritz Lang، وديڤيد لين David Lean، وميلوس فورمان Milos Forman، وجون وو John Woo، الذين جلبوا معهم تقاليد سينمائية كالتعبيرية الألمانية والرومانسية الإنكليزية، وضد السلطوية من أوروبا الشرقية بعد الحرب، وعروض الباليه شديدة الحركة من هونغ كونغ. والثقافة الأمريكية الشعبية هي في حالة تخمر دائم. وفي الوقت نفسه وبسبب الآثار «الأجنبية» الكثيرة، توجد عناصر كونية تستطيع أن تعزف علىٰ أوتار الاعتراف والتقدير في العالم كله.

إن جمع سوق ضخمة متنوعة القوىٰ مع تكنولوجيا تناسب النشر الواسع للبضائع والخدمات ـ المعامل التي تستطيع إنتاج مئات السيارات يومياً، ومعدات صناعة الأفلام وعرضها، والمطابع عالية السرعة وما شابه ـ وثقافة اقتصاديَّة كبيرة في الإدارة كان هذا الجمع ولا يزال قابلاً للانفجار. فالرجال الذين أوجدوا هوليوود إضافة إلىٰ بعض الإدارات البارزة في حقول ثقافية أخرىٰ (مثلاً هنري فورد Henry Ford) لم يكونوا من النخبة الأمريكية، بل كانوا بصورة رئيسيَّة من خلفيات متواضعة وبالتالي متوافقين تماماً مع متوسط أذواق العامَّة[33].

تبين أن إرضاء الأذواق المتنوعة للعامة الأمريكية مصادفة هي أَرضية تدريب للتوسع إلىٰ الأَسواق العالميَّة. صرح وليام هيس William Hays ذات مرة، وهو أول رئيس في هيئة المنتجين والمخرجين السينمائيين الأمريكيين MPPDA، وهي التي سبقت ما يعرف بهيئة السينما الأمريكية MPAA: «يوجد سبب خاص يوجب علىٰ أمريكا أن تنجب وترعىٰ السينما وتسليتها للعالم. إن أمريكا دولة العالم حقاً وبالمعنى الحرفي للعبارة. فجميع الأعراق والمعتقدات وكل الرجال موجودون هنا»[34]. فقد ساعدت الميزات الفريدة للسوق الأمريكية علىٰ الانتقال العالمي لثقافة الأمة الشعبية عموماً، وكما يشرح أحد المحللين الإعلاميين ويليام ريد William Read:

«إن المهارات والخبرات الأساسية المفيدة عند التوسع إلىٰ أسواق أجنبية متنوعة، كان قد تم الحصول عليها ضمن الولايات المتحدة، وهي ليست سوقاً قومية واحدة مجمعة من أسواق فرعية. . . لقد كانت الأتصالات العامة في الولايات المتحدة تقليدياً مصبوغة بإحساس قوي من المحلية. وخدعة منظَّمات وسائل الإعلام الكبيرة هي خلط العمليات المحلية في خطط البلاد كلها. والموهبة التي تطورت في هذا العمل انتقلت للاستعمال الخارجي»[35].

كان هذا الجمع بين التدريب وموضوع الحس العام والأحاسيس قوياً فعلاً في نجاح الثقافة الأمريكية الشعبية في الوصول إلىٰ الأَسواق العالميَّة. بالإضافة إلىٰ ذلك، أمضى الأمريكان الثلث الأول من القرن العشرين يطورون بنشاط ويسيطرون بسرعة علىٰ قطاعات المعلومات/ الاتصالات والسفر اللازمة لنشر الثقافة الشعبية الأمريكية نشراً فعَّالاً علىٰ المستوىٰ العالمي. يشمل ذلك الكوابل البحرية والراديو والبرق اللاسلكي وخدمات الأخبار والطيران[36]. أضف إلىٰ ذلك نزعة منتجي الثقافة الأمريكية إلىٰ استخدام، الطريقة الأمريكية النموذجية بإدارة الأعمال، اقتصاديات القياس التي تخفض الكلفة للقطعة لدىٰ المستهلك. وفضلاً عن ذلك، فإن الحجم الكبير للسوق المحلية للسينما وبرامج التلفزيون والموسيقى والأزياء والسيارات ووفرة من البرمجيات الأمريكية الأخرىٰ، والسلع الثقافية الصلبة كلها تعني أن المنتجين الأمريكيين يستطيعون أن يخفضوا تكاليف منتجاتهم في الوطن وهذا بدوره يعني أن التوزيع الخارجي مربح جداً.

كانت الثقافة الأمريكية الشعبية من صنع الشركات الخاصة، ليس في إبداعها فحسب بل وفي الجزء الأكبر من نشرها عالمياً. عند هذه النقطة تقف الولايات المتحدة مقابل الدّول الصناعية الكبرى الأُخرىٰ التي تنصب حكوماتها

نفسها ليس كدعاة اقتصاديين فحسب بل وقضاة جمال وأفكار أيضاً[37]. بينما تكون معظم الحكومات مشغولة في الوقت الحاضر بحماية صناعاتها الثقافيَّة ومؤسساتها بقدر ما تستطيع ـ وهو شيء قليل جداً ـ من التفوق الأمريكي، تتابع فرنسا بصورة خاصة جهوداً قوية علىٰ أُسس فكرية وفنية لتشجيع عطاءاتها الثقافيَّة بما فيها البرامج التلفزيونية للأمم الفرنكوفونية (الناطقة بالفرنسية) حول العالم.

تلعب الحكومة الأمريكية دوراً ثانوياً في دعم نشر الثقافة، بالمقارنة مع دول أُخرىٰ. ولا نقول هنا إن الحكومة الأمريكية لم تساعد في عملية الانتشار. فقد لعبت وزارة التجارة ووزارة الخارجية دوراً مفيداً في مساعدة صناعة الإذاعة الأمريكية ومعلومات الأخبار والسينما والتلفزيون لتكسب مواقع أقدام في الأَسواق الأجنبية ولتحافظ عليها[38]. كان لدى الحكومة سبب جيد لمساعدة صناعة الثقافة الأمريكية؛ تشكل هذه الصناعة ثاني أكبر مصدر دخل من صادرات البلاد بعد الصناعة الفضائية. ففي سنة 1992 مثلاً، ارتفعت صادرات التسلية الأمريكية إلىٰ أوروبا وحدها إلىٰ 4,6 بليون دولار[39].

باستثناء فترات قصيرة خلال الحرب العالميَّة الأولىٰ والثانية في النصف الأول من القرن العشرين، قامت حكومة الولايات المتحدة بمحاولات صغيرة لتؤثِّر في انتشار الثقافة الأمريكيَّة الشعبية انتشاراً محلياً أَو عالمياً. وغالباً ما تلجأ هيئة تصدير الأفلام الأمريكيَّة وشركات الثقافة الأمريكيَّة الشعبية إلىٰ حكومة الولايات المتحدة من أجل المساعدة علىٰ فتح أَسواق أجنبية والحفاظ عليها وتوسيعها[40]. ولكن في مثل هذه المساعي كانت شركات القطاع الخاص ولا تزال القوة الدافعة بدون تغيير تقريباً. عندما ناضل المحامي السابق عند شركات التسلية ميكي كانتر Micky Kanter بقوة وعنف كبيرين كمفاوض تجاري من الولايات المتحدة لتضمين صادرات الوسائل المسموعة والمرئية كعنصر من السوق الحر في مفاوضات الغات سنة 1993، أوضح بما لا يدع مجالاً للشك

كيف تخدم الحكومة بدور مدافع قوي عن صناعات الثقافة الأمريكيَّة الشعبية ذات المواقف المدفوعة اقتصادياً بالدرجة الأولى[41].

أمريكا ودول أُخرىٰ: التباين (الفروق)

قارن المثال الأمريكي paradigm والوضع التاريخي بين المنافسين الأقوياء للثقافة الشعبية في الولايات المتحدة. ففرنسا وألمانيا واليابان مثلاً كلها متجانسة ثقافياً، وهذا لا يؤدي إلىٰ شحذ القدرة لإرضاء جماهير متميزة. (بريطانيا نوعاً ما غير متجانسة وتربطها بالولايات المتحدة لغة مشتركة)، نجحت في فترات في الدفع إلىٰ المجال الثقافي الموسيقي العالمي، فعلىٰ سبيل المثال، فرق موسيقى البوب من البيتلز Beetles إلىٰ سبايس غيرلز Spice Girls، وسلسلة أفلام جيمس بوند (بتمويل وتوزيع أمريكي). وكان الاتحاد السوڤياتي غير متجانس بصورة غير طبيعية، لكنَّه كان يسيطر عليه نظام شيوعي يحاول أن يفرض الذوق لا أن يرضيه، وكان في نفس الوقت إمبراطورية من طراز قديم تربطها معاً قوة الجيش الأحمر القاهرة، بيئة لا تكاد تطور فيها ثقافة متعددة الأعراق ترضي المستهلك.

الأكثر من ذلك أَنَّه توجد في دول أُخرىٰ هوة عميقة بين النخبة المنتجة للثقافة وبين مستهلكيها. إن وسائل الإعلام في الولايات المتحدة تعتبر أولاً وقبل كل شيء وسائل نشر للثقافة الشعبية مثل السينما والتلفزيون، ينظر إليها من قبل صناعي الذوق في لندن وباريس وبرلين وفي أماكن أخرىٰ علىٰ أَنَّها أقنية ثقافية عالية ـ علىٰ الأقل عندما تستخدم بصورة صحيحة (أندريه مالرو André Malaraux ـ إضافة إلىٰ أعماله الأُخرىٰ ـ وزير الثقافة لشارل ديغول Charles de Gaulle، أشار إلىٰ السينما علىٰ أنها «أكثر من ذلك فهي صناعة»)[42]. ونتج عن ذلك بعض التحديات الفنية الممتازة، وهي علىٰ الغالب أفلام وبرامج تلفزيونية وموسيقى تدعمها الحكومة. لكنها غالباً ما أنتجت وضعاً غير ممتع بشكل واضح بالنسبة لجمهور البلد المنتج، وهو أقل كثيراً بالنسبة للجماهير الممكنة

في بلاد أُخرىٰ[43]. كما لاحظت المؤرخة إيملي روزنبرغ Emily Rosenberg في ما يتعلَّق بصناعة السينما الأمريكيَّة سرعة انتقال سيطرتها العالميَّة في أوائل القرن العشرين، «مقابل أفلام النخبة الأوروبية»، كانت الأفلام الأمريكيَّة تروق لجماهير العامة. كانت الأفلام الأمريكيَّة الأولىٰ مصمَّمة لتتمتع برعاية متعددة الأعراق في الوطن، وليس بحسب تقاليد فن النخبة، وكانت تناسب السوق العالميَّة تماماً[44].

إضافة إلىٰ ذلك، ليس لدىٰ المنافسين المحتملين ثقافياً لأمريكا عدد سكان كاف لدعم الصناعة الثقافيَّة الشعبية الضخمة والمعروفة عالمياً بدون معونة، فرنسا مثلاً، وهي الأمة التي وضعت نفسها بكل تأكيد البديل الثقافي للولايات المتحدة، عدد سكانها خمس عدد سكان الولايات المتحدة تقريباً. إن ثقافات العمل في هذه الدّول، علىٰ الأقل عندما تأتي إلىٰ الثقافة الشعبية، جُمعت منذ زمن مع عدد السكان الصغير نسبياً لمناهضة تطوير اقتصاديات القياس. تغيرت هذه الحال نوعاً ما في العقدين الماضيين من القرن العشرين، لكن التغير حدث بصورة رئيسية نتيجة الاستثمار الأجنبي في أعمال الثقافة الأمريكيَّة الشعبيَّة[45]. الصين والهند، وهما أكثر الأمم سكاناً، فيهما أَسواق محلية ضخمة، وبالفعل إن صناعة الفيلم الهندي «بولي وود Bollywood» هي الأكبر في العالم من حيث الإنتاج المحض. لكن، وكما لوحظ سابقاً، الثقافة الهندية intoto وجدت جماهير عالميَّة، إن ثقافتها الشعبية تروق للهنود في الهند بالمكان الأول وفي جميع أنحاء العالم (علىٰ الرغم من أن رائعة الأفلام الأمريكيَّة في أواخر التسعينيَّات «إليزابيث Elizabeth» الذي يحكي قصة الملكة التيودورية الإنكليزية، كان من إخراج صانع أفلام هندي وبأسلوب بولي وود Bollywood المتميز بالدراما المفرطة وبالألوان الزاهية)[46]. والصينيُّون، الذين لا تزال عطاءات ثقافتهم الشعبيَّة غالباً ما تقيدها الرقابة الرسمية، يستهلكون كل ما تقع أيديهم عليه من الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة بنهم شديد.

اللُّغة والإيديولوجيا

توجد مكونات حاسمة أُخرىٰ للنجاح العالمي للثقافة الشعبية الأمريكيَّة منذ انتقالها المبكر إلىٰ ما وراء البحار. أولها اللُّغة الإنكليزية. فالبروز العالمي لبريطانيا العظمى زمناً طويلاً واتساع مصالحها الاستعمارية جعل اللُّغة الإنكليزية تنتشر بصورة واسعة منذ القرن الثامن عشر حتى الآن. وآزرت الولايات المتحدة وعمَّقت هذه العملية في وسائل إعلامها وانتقلت الأعمال إلىٰ المجال العالمي في القرن العشرين. وبعيداً عن الدفع الذي تقدمه دولتان من أقوى دول العالم إلىٰ اللُّغة الإنكليزية، فإنَّها مناسبة لغوياً بصورة فريدة لاستخدامها الواسع كلغة ثانية[47].

إضافة إلىٰ ذلك، تتحاشى اللُّغة الإنكليزية في معظم أقسامها التمييز المشترك في اللغات الأُخرىٰ بين الصيغة الثقافية أَو الأَرستقراطية العالميَّة والصيغة الشعبيَّة، وكذلك الإختلافات بين اللُّغة المكتوبة واللُّغة المحكية.

ولا يوجد ما يشبه الأكاديمية الفرنسية التي تؤسِّس وتحافظ علىٰ مجموعة متشددة من القواعد الخاصة بالتهجئة والنحو واستخدام أَو استيراد كلمات أجنبية[48]. فاللُّغة الإنكليزية، وهي التي تستمد في جوهرها من الألمانية القديمة والفرنسية القديمة مع بقايا واضحة من اللاتينية واليونانية، تعمل كإسفنجة تمتص مفردات، فتجرد المفردات والعبارات الإسبانية والهندية واليدية والصينيَّة والأمريكيَّة الأصلية والإفريقية طريقها إلىٰ الاستعمال. وغياب الإنكليزية «الأصيلة» «Hock English»، وهذه المفردات من لغات متعددة أعطتها قيمة إيجابية إيديولوجية أيضاً.

وهذا يقودنا إلىٰ العنصر الأخير الضروري للشعبية، ومن ثم لقوة الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة: لقد سحرت الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة العالم منذ أواخر القرن التاسع عشر عندما أخذ بوفالو بيل كودي Buffalo Bill Cody عرضه «الغرب المتوحش» Wild West إلىٰ أوروبا وما وراءها من خلال ظهور هوليوود، وأول

فيض من صور الثقافة الاستهلاكية الأمريكيَّة، وسخر نجوم السينما، ومن خلال سيل البضائع الأمريكيَّة والتسلية في فترة ما بعد الحرب العالميَّة الثانية حتى الوقت الحاضر حيث المسلسل التلفزيوني «Bay Watch»، البرنامج الوحيد الأكثر شهرة في العالم الذي يصور ثقافة الشاطئ في كاليفورنيا الجنوبية (ومنذ انتقاله إلىٰ هونولولو في خريف 1999، هاواي) وكأنَّها حقول فردوسية مع الرمال[49]. وخلال القرن العشرين بدت الولايات المتحدة للآخرين ساحرة وغريبة وغنية وقوية ومحددة الاتجاه تضع حداً فاصلاً للعصرية والتجدد[50].

إن الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة هي بالتناوب جنسية وعنيفة وساحرة ومادية ورومانسية. وسواء من حيث التسلية أَو تسويق السلع الاستهلاكية إنَّها علىٰ العموم متفائلة ومألوفة وديمقراطية. والكثير منها يتفاخر بالفردية واللاسلطوية وبانتصار المحرومين علىٰ الأقوياء. بينما يوجد الكثير مما هو أمريكي خصوصاً حول الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة ـ سواء كان نجوم هوليوود وأماكن مثل نيويورك ولوس أنجلوس في الأفلام والتلفزيون، وأيقونات الرياضة الأمريكيَّة والثقافة المعاكسة في الأزياء وحتى وجبات الطعام السريعة والروك والراب في كلياتها ـ ومواضيعها الشاملة يتم اختيارها عن عمد لقوتها التجاريَّة، وتنتقل بصورة جيدة جداً من ثقافة إلىٰ أُخرىٰ[51].

تصور الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة ولايات متحدة فيها مواطنون جذَّابون وحازمون وناجحون، يلبسون جيداً، وهم ساخرون وبليغون وخياليون وأحرار في التعبير عما يجول في عقولهم وقادرون علىٰ تحقيق أحلامهم. وتصور أمريكا علىٰ أنَّها متعددة الأعراق، ساحرة وسريعة الخطوة، صوتها أجش تملؤها البراري وجمال المدن، وقوية، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً[52].

والمشكلة الكامنة هي أن ليس لحكومة الولايات المتحدة سلطة عملية علىٰ محتوى ونوعية التسلية والمنتجات التي يصدرها القطاع الخاص إلىٰ جميع أنحاء العالم[53]. وهذا غالباً ما يكون جزءاً من السحر، مثلاً الأفلام التي تنتقد المجتمع

المحلي تعطي دليلاً علىٰ القوة العظمىٰ التي لا تخشى المعارضة. ولكن، من وقت لآخر، تستطيع الأخطاء الناجمة عن القطاع الخاص أن تؤذي الصورة الأمريكيَّة القومية ولو بصورة موجزة: رد فعل شركة كوكاكولا بعدم تصديق التقارير عن منتجاتها التي تسببت بمرض الأوروبيين الغربيين في منتصف سنة 1999، في وسط أزمة كوسوفو والحروب التجاريَّة حول الموز بين الولايات المتحدة وأوروبا كانت ضربة للهيبة الأمريكيَّة في الإقليم خلال فترة صعبة(54).

كيف تتناسب الإنترنت مع هذا كله؟ باختصار، إنَّها مصنوعة حسب الطلب لتلعب لصالح قوة أمريكا ولتقدم الفكرة الأمريكيَّة. فالولايات المتحدة تذهب إلىٰ أبعد من أي دولة أُخرىٰ في حماية حرية الكلام. إن التعديل الأول علىٰ قسم اللغة يعطي مجالاً صغيراً للتردد، وحتى الدّول الغربية الأُخرىٰ يجب أن تنشغل بالمراقبة أَو بأشكال أُخرىٰ من كتب المعلومات. لقد كانت الإنترنت منذ تأسيسها مصبوغة بلون قوىٰ التحرر الجذري، إنَّها أحدث ظاهرة تظاهرة للإيديولوجيَّة المعارضة الجذرية الهويغية Whig، التي تخشى الطغيان وترتاب بشدة من أية مؤامرات علىٰ الحرية، التي عرّفها المؤرخ برنارد بيلين Bernard Bailyn علىٰ أَنَّها مركزية للوعي السياسي في أمريكا القرن الثامن عشر، ولتأسيس الولايات المتحدة(55). ولقد باءت محاولات رسمية في الولايات المتحدة لتشريع ضوابط أَو حدود للمحتوىٰ بالفشل مراراً، والتقييدات التقنية علىٰ المصافي ومراقبة أعمال المستخدمين تعني عملياً أن كل ما يستطيع أن يشاهده الأمريكيون علىٰ الإنترنت، يستطيع أن يراه معظم المستخدمين لهذه الشبكة في العالم أيضاً.

ما الذي يريد أن يراه مستخدمو الإنترنت أكثر من أي شيء آخر؟ الرمز للجنس في أمريكا باميلا أندرسن لي Pamela Anderson Lee مصورة علىٰ الڤيديو في Flagrante delicto مع عازف غيتار الروك. في سنة 1998 ـ 1999 «باميلا أندرسن» كانت العبارة الأكثر شهرة علىٰ الإنترنت ـ هذا ما لاحظه المسوِّقون

الأذكياء عن هذه الشعبيَّة واستخدام العبارة للربط مع منتجات لا علاقة لها بما في ذلك توريدات أنابيب المياه. والتقديرات أن اسم الممثلة السينمائية وصورتها حقَّقا دخلاً مقداره 77 مليون دولار حتى نيسان 1999 وحدها[56]. وكانت حرية الكلام والتسلية والإدارة هي المحرك لسيطرة الأمريكيَّة العالميَّة في وسائل الإعلام، والإنترنت بدون شك تقريباً لن تكون استثناء. وكالمحركات الأُخرىٰ لانتشار الثقافة الشعبية الأمريكيَّة، إن الإنترنت هي المدفع الحر ذو القدرة علىٰ إخراج الولايات المتحدة في مناسبات، وعلىٰ تزويد منافسيها وأعدائها بسوق يستطيعون فيها المنافسة. لكن الولايات المتحدة ذات الالتزام المقنن والأقدم والأوضح بحرية الكلام أكثر من أية دولة أُخرىٰ، هي أفضل استعداداً من أكثر الدّول الأُخرىٰ علىٰ التعامل مع تقلبات الإنترنت.

لكن، سوف تكون السينما في المستقبل المنظور أكثر أهمية من الإنترنت أَو حتى من التلفزيون والراديو كوسيلة لنشر الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة في الخارج. فخارج الولايات المتحدة وحفنة من الأمم الغنية الأُخرىٰ لا تزال الإنترنت ضرورة بالنسبة للنخبة. وهبوط الأَسعار بلا شك سوف يوسع مجال مستخدميها كثيراً. لكن معظم البيوت في العالم لا تزال بدون اتصالات هاتفية بسبب المودم أَو حتى بدون الكهرباء من أجل التلفزيون. وما دامت هذه الحقيقة مستمرة، سوف يبقى عرض الأفلام عروضاً عامة الوسيلة الرئيسية لبث حلم الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة، بيع عمل احتيالي، وجنس، وأحذية رياضيَّة.

وفي الواقع، حتى عندما يصبح لكل بيت علىٰ الأَرض توصيلات كهربائية، وتلفزيون واتصال بالإنترنت، سوف تقف هوليوود وحدها تقدم الحلم: أفلام تجعل من الإيقونات وفي المناظر البعيدة وحتى المنتجات تماثيل بتقديمها أكبر من الحقيقة بالمعنى الحرفي؛ والتلفزيون والإنترنت بالمقابل يصغِّران الصور ويجعلانها عملاً يومياً مملاً. وحتى التلفزيون بشكله المكبر لن يصل إلىٰ الحجم الأسطوري لشاشة السينما، وبالتأكيد لن يقترب من قبولها

الشامل. إن أجهزة الراديو وسيلة صغيرة ورخيصة الثمن ومتوفرة في كل مكان لنشر الموسيقى الشعبية والإعلانات، ولكن لا تزال الصورة تساوي ألف كلمة. وسوف تستمر هوليوود لتكون كما كانت دائماً: مصنع الحلم الأمريكي حتى إن شخصيات مثل ستالين Stalin وغوبلز Goebbels حلموا فقط بإعجاب بتقليدها[57].

عكس أقطاب تأثير الثقافة الأمريكيَّة

لكن يوجد عنصر للتفاوض بين المنتجين الأمريكيين للثقافة الشعبية ومستهلكيها في العالم الذين يستطيعون الذهاب إلىٰ ما هو أبعد من مفهوم التهجين والتوحيد والعولمة الموصوفة في ما تقدم من هذا الفصل. ففي بعض الحالات سوف تحاول دول أُخرىٰ أن تحول الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة إلىٰ استعمالاتها الخاصة. ويستطيعون القيام بهذه الجهود إما بالتعاون مع منتجين للثقافة وإما بجهودهم الخاصة.

مثال واحد حديث هو فيلم والت ديزني سنة 1997 «مولان Mulan»، الذي يعيد حكاية الملحمة الصينيَّة القديمة حول الفارسة. لقد أنتج فيلم مولان في أعقاب سوء التفاهم بين ديزني وبكين حول فيلم المخرج مارتن سكورسيس Martin Scorsese حول سيرة حياة الداي لاما (كوندون Kundan) الذي أنتجته ميراماكس Miramax وهي فرع من ديزني، فأغضب القيادة الشيوعية لتصويره الوحشية الصينية في التيبت وجعلهم يهددون بمنع ديزني في الصين (استراتيجية ديزني في الصين بين أشياء أُخرىٰ تشتمل علىٰ خطط طويلة الأجل لديزني لاند الصينيَّة). لقد أعطيت مولان البروفيل العالي المعتاد الذي يطلقه ديزني بالدمىٰ والملاحق الإعلانية الأُخرىٰ في الولايات المتحدة وحول العالم. لقد كانت صورة الصين أكثر إيجابية في فيلم أمريكي أكثر مما كانت قبل وأثناء الحكم الشيوعي. تم إرضاء الصين وسُمح لديزني بالاستمرار بالعمل في الصين[58].

مثال آخر أحدث جاء من صربيا خلال صراع كوسوفو في سنة 1999. أولاً

obeikandi.com

وقبل كل شيء، بطريقة صدام حسين نفسها في العراق سنة 1991، زود ميلوسيڤتش Milosevic محطة CNN ومنظَّمات إخبارية أُخرىٰ بالوصول إلىٰ بلغراد بدون عوائق وإلىٰ الأهداف الصربية وضحايا قصف شمال الأطلسي بما فيها داخل كوسوفو نفسها. ثانياً، استخدمت منظَّمات مؤيدة لصربيا الإنترنت استخداماً فعالاً لدفع خط بلغراد ولزرع الشكوك حول الأساس العقلي لعملية حلف شمال الأطلسي لأي شخص يبحث «عن الجانب الآخر من القضية». ثالثاً، إن شعار عين الثور الذي وضع آلاف القمصان التي لبسها الصرب ومؤيدوهم قد سرق من شعار مخازن تارغيت الأمريكية American Target Stores. رابعاً، لقد بث التلفزيون الصربي دون انقطاع أفلاماً أمريكيَّة مثل: Wag the Dog، Apocalypse Now، The Great Dictator، وSchindler's List وذلك ليرسموا الهجوم الذي يقوده الأمريكيون علىٰ أَنَّه نتاج للسياسات المحلية للولايات المتحدة الأمريكيَّة، ولربط الهجوم بجنون الڤيتنام ولمعادلة الناتو بالنازية.

وفي المستقبل سوف يكون دون شك أمثلة أكثر لهذه الظاهرة وبطرق أكثر إثارة من تلك التي وصفتها الأمثلة السابقة. في أطروحة الدكتوراه قمت بفحص كيف حاول نظام فرانكو الفاشي في إسبانيا، بعد الحرب العالميَّة الثانية أن يستخدم السياحة الأمريكيَّة في إسبانيا وإنتاج الفيلم الأمريكي في إسبانيا لدعم صورته في الولايات المتحدة وفي أماكن أُخرىٰ، وللمساعدة في بناء اقتصاده المنهار[59]. يمكن للمرء أن يتخيّل جيداً نظام ما بعد ميلوسيڤتش يحاول فعل الشيء ذاته لصربيا (بالفعل كانت يوغوسلافيا ملجأ لأعمال الإنتاج الأجنبي في السبعينيَّات والثمانينيَّات)، أَو يتخيل نظاماً في بكين في المستقبل يقرر عودة العلاقات السياسيَّة والاقتصاديَّة الودية مع الولايات المتحدة دون التراجع عن ذلك[60].

القوة اللينة للثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة وحدودها

لقد أعطت السيطرة الأمريكيَّة علىٰ إنتاج الثقافة الشعبيَّة ما يسميه جوزيف

ناي Joseph Nye القوة اللينة، القوة لأن تقنع أَو تضم، مقابل القوة الصلبة أَو قوة الإرغام. وكما يقول ناي: «القوة اللينة هي قدرتنا علىٰ الحصول علىٰ ما نريد عن طريق الجذب بدلاً عن طريق الإرغام. فعندما تريد دول أُخرىٰ النتائج نفسها التي نريدها، فعندئذ نستطيع الحصول علىٰ ما نريد دون الاضطرار إلىٰ الإنفاق بقدر الإنفاق علىٰ الإرغام»[61]. لكن حجر الزاوية في نظرية العلاقات الدّولية الواقعية هو أن الدّول الأضعف ستجتمع لتكبح أَو حتى تهزم دولة قوية ترىٰ في قوتها تهديداً شاملاً لها. إن القوة اللينة الأمريكيَّة المجسدة بالثقافة الشعبيَّة لن تكون بذاتها سبباً لأي تراجع سياسي كبير ضد الولايات المتحدة؛ ولم تفعل ذلك حتى الآن خلال قرن من السيطرة المتزايد في هذه الساحة.

أما الآن، ولأول مرة تصل القوة الأمريكيَّة الصلبة لتماثل تفوقها في القوة الليِّنة الذي حافظت عليه الولايات المتحدة زمناً طويلاً جداً، وعلىٰ وجه الخصوص في المجال العسكري حيث تقف الولايات المتحدة في مجالها الخاص بها بدون أي متحد خطر. تنفق 270 بليون دولار في السنة علىٰ الدفاع مقابل مثلاً أقل كثيراً من 35 بليون لكل من روسيا والصين. في القرن الحادي والعشرين سوف تكون الولايات المتحدة ما أشار إليه وزير الخارجية الفرنسي هيوبرت فيدرين Hubert Vedrine «بالقوة الأعظم» في العالم التي لا يقابلها قوة موازية فعَّالة لأول مرة من حيث مجالات القوة الليِّنة والقوة الصلبة، وبذلك تكون المصدر الدائم للقلق بالنسبة للدول والأحلاف الأُخرىٰ. إن توأمة تفوق القوَّة الأمريكيَّة الليِّنة والصلبة تمكنها من أن تغير من التصور الموجود والذي يتآكل عن الولايات المتحدة كزعيمة للعالم طيبة نسبياً. وبشكل خاص، إذا نُظر إلىٰ الولايات المتحدة علىٰ أنَّها تدفع بأجندتها العسكرية والاقتصاديَّة بشكل مؤكد ومستمر، فالصورة المتفائلة والساحرة لأمريكا المحبة للتسلية التي رسمتها هوليوود بفاعلية، يمكن أن تغطيها صورة الولايات المتحدة كقوة استعمارية متسلطة بل وحتى خطرة، وهي، بحسب كلام ثيوسيديدس Thucydides: «تفعل ما تستطيع وتجبر الآخرين علىٰ فعل ما يجب عليهم فعله».

في هذا المشهد القوَّة الليِّنة، وهي مربوطة إلىٰ القوَّة الصلبة بطريقة غير مريحة، والتي تبدو خارجة عن السيطرة، يمكن أن ينظر إليها لا علىٰ أَنَّها قوة لينة للتسلية والاستهلاك السليم، أَو حتى إقناع لطيف من قِبل المستهلك الوسطي في العالم، بل ينظر إليها علىٰ أَنَّها قوة صلبة في جلد خروف. وادعىٰ عدد من الكتاب أن كثيراً من الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة قد أعيد تفسيره بالكامل في بلاد أُخرىٰ حتى إنَّها فقدت شخصيتها الأمريكيَّة الخاصة وأَصبحت جزءاً من ثقافة تلك البلاد بصورة ناجعة. وهذا صحيح إلىٰ حد ما. لكن جماهير بلغراد الذين ألقوا بالقمامة علىٰ محل ماكدونالدز ورفعوا لافتات «أوقفوا كولا الناتو» بأسلوب الشعار المألوف نفسه لهذا المشروب في أعقاب قصف الناتو لمدينتهم، قدموا دليلاً دراميًا علىٰ أَنَّه في نهاية اليوم وخاصة في فترات الأزمات، لا أحد ينسى مصدر الوجبات السريعة والأزياء والأفلام[62].

الخاتمة

في أوائل القرن الحادي والعشرين لدينا عالم ذو درجة عالية جداً من الوعي الثقافي المتبادل والآني أكثر من ذي قبل، والذي جعل هذا ممكناً التطورات التكنولوجية غير الطبيعية التي أعطتنا عصر المعلومات الإلكترونية في القرن العشرين والحادي والعشرين. لكن العولمة الثقافيَّة، وهي سلسلة ظواهر عمرها آلاف السنين، لم تؤد إلىٰ تجانس ثقافي بل علىٰ العكس إلىٰ عملية أكثر تعقيداً من التبادل يمكن أن تسمى بأسماء متنوعة كالتهجين أَو العولمة المحلية glocalization وما شابه. لم تكن الولايات المتحدة، وهي ربما كانت الدّولة الأكثر تهجيناً علىٰ الكوكب، تعيد صناعة العالم في صورته خلال هذه الفترة، بل كانت تقوي وتحافظ علىٰ وضع متفوق كمنتج وحيد للثقافة المعدة لإستهلاك العالم كلّه.

إن النتيجة الثقافيَّة هي نشر عناصر من الإيديولوجيَّة الأمريكيَّة ونمط معيشتها التي تعطي جماهيرها المتباينة في جميع أنحاء الأَرض إحساساً إدراكياً

بالاتصال الآني مع الولايات المتحدة. هذه المبيعات السائدة للطريقة الأمريكيَّة تعطي الولايات المتحدة بلا شك فوائد القوة اللينة التي وصفها ناي Nye، ويحتمل أَنَّها ستستمر في فعل ذلك إلاَّ إذا رأت بقية العالم في الولايات المتحدة تهديداً مستمراً للاستقرار العالمي. ولكن يجب ألا نذهب بعيداً في افتراض تأثير التنويم المغناطيسي أَو تأثير تحول الثقافة الشعبيَّة الأمريكيَّة، فكثير من شباب الميليشيات في يوغوسلافيا السابقة مثلاً شاركوا في المذابح العرقية، وهي فعاليات غير أمريكيَّة أبداً، بينما كانوا يلبسون الجينزات الزرق (ليڤايز Levis) وأحذية (نايكي Nike). وكلما أَصبح العالم «مرتبطاً» أكثر فأكثر، فإن إدراك الثقافة الأُخرىٰ والتبادل معها سوف يتزايد دون شك. ولكن قد نحتاج إلىٰ تطوير جائح لمشهد الغزو من المريخ الذي قاله رونالد ريغان Ronald Reagan نصف مازح (والذي أكد أَنَّه سيجعل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يضعان خلافاتهما جانباً) لتأمين قوة جاذبة إلىٰ المركز لصنع «ثقافة عالميَّة» واحدة. وسوف يبقى العالم مكاناً أكثر متعة في غياب أهل المريخ.

ملاحظات

(1) جون تـوملـنسـن John Tomlinson، «Globalization and Culture» (University of Chicago Press, 1999)، ص 1.

(2) هذا القلق والأمل لحلها تجسدا في خطاب الرئيس جون ف. كيندي في حزيران 1963 في الجامعة الأمريكية، الذي ألقاه في أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية والذي صرح فيه: نحن (الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي) ندور في دائرة مفرغة وخطيرة التي يولّد الشك فيها في طرف شكاً في الطرف الآخر، كما يولد السلاح الجديد سلاحاً آخر. إذا كنا لا نستطيع حل خلافاتنا، أَو المساعدة علىٰ جعل العالم آمناً بالتنوع علىٰ الأقل. لأنه بالتحليل النهائي، فإن الرابطة المشتركة والأساسيَّة أننا جميعاً نعيش علىٰ هذا الكوكب الصغير. وكلنا نتنفس نفس الهواء. وكلنا نرعىٰ مستقبل أطفالنا. ونحن جميعاً إلىٰ فناء. «اقتبست من بيرنارد أ. فايسبرغر (Bernard A. Weisberger) من كتابه «Cold War, Cold Peace, The United State and Russia Since 1945,» (American heritage Press, 1985) ص 227.

(3) ماكس ڤيبر (Max Weber)، (The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism) ترجمة: تالكوت بارسن (Talcott Parsons).

وراجع المقدمة، راندل كولنز (Randall Collins) الطبعة الثانية Roxbury (Roxbury, 1998).

obeikandi.com

(4) يوغيش آتال (Yogesh Atal) «One Word, Multiple Cultures» في كتاب من إعداد جان سيرڤاس (Jan Servas) وريكو لاي (Rico Lie)
«Media and Politics in Transition: Cultural Identity in the Age of Globalization,» (Leaven, Belgium: Acco, 1997) ص 20.

(5) راي لورانس (Ray Laurence) وجون باري (Joan Berry)
«Cultural Identity in the Roman Empire,» (Routledge, 1998)، فصل 1 وأماكن أخرى.
وللتأكد يستطيع المرء أن يجد مدناً تحوَّلت إلىٰ رومانية بالكامل مثل لندينيوم في بريطانيا، ولوغدونوم في فرنسا. وأكثر من ذلك إن التحويل إلىٰ روماني في وسط إسبانيا بعد سلسلة من الحروب الوحشية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد يقدم مثالاً حياً علىٰ قدرة روما علىٰ اقتلاع معطيات الثقافة المحلية التي كانت تعتبرها تهديداً لسيطرتها.
وج. ب ف. دي بالدسن (J. P. V. D. Baldson)، «Romans and Aliens», (London, Gerald Duckworth & Co. 1997) ص 60، 64 ـ 65؛
دونالد ر. دادلي (Donald R. Dudley)، «The Romans 850 B. C. - A. D. 337» (Alfred Knopf, 1970)، ص 61 ـ 62.

(6) جان نيديرڤين بياتريس (Jan Nederveen Pieterse)، «Globalization as Hybridisation», مجلة International Sociology (حزيران 1994) ص 169.

(7) آرجون أبورادآي (Arjun Appuradai)، «Modernity at Large: Cultural Dimension of Globalization» (University of Minnesota Press, 1996)، ص 11.

(8) رونالد روبرتسون (Ronald Robertson) «Globalization: Social Theory and Global Culture,» (London: Sage Publication, 1992) ص 6.

(9) مروان م. كريدي (Marwan M. Kraidy)، «The Global, The Local, and the Hybrid: A Native Ethnography of Globalization,» Critical Studies in Mass Communication (كانون الأول 1999) ص 472.

(10) آتال «one World» (Atal) ص 22.

(11) ألبرت حوراني (Albert Hourani)، «A History of the Arab Peoples,» (Harvard Belknap Press 1991) ص 7 ـ 9 و201 ـ 202.

(12) جارد دياموند (Jared Diamond)، «Guns, Germs and Steel: The Fate of Human Societies,» (Norton, 1997) ص 35 ـ 41.

(13) لمراجعة حديثة عن الخط المشوش بين الخيال والحقيقة في النقاش الحالي حول الاتصالات بين الشرق والغرب قبل رحلة كولمبوس في أمريكا. راجع مارك ك. ستينجل (Mark K. Stengel) «The Diffusionists Have Landed» ـ في مجلة Atlantic Monthly عدد كانون الثاني 2000 ص 35 ـ 48.

(14) جون هـ. ماركس (John H. Marks) «Visions of One World: Legacy of Alexander» (Four Quatret Pub. Co., 1985) ص 69. وانظر أيضاً ايريك إس غرون (Erich S. Guren) «The Heltenistic World and the Coming of Rome», vol. 2 (University of California Press, 1984).

(15) ماركس (Marks)، «Visions of One World». وكذلك غرون «The Hellenistic» (Gruen).

(16) ما يسمى بطريق الحرير (أطلق التسمية في نهاية القرن التاسع عشر الجغرافي الألماني والجيولوجي فردناند ريشتوفن (Ferdinand Richthofen) «لم يكن طريقاً واحداً، بل طرق كثيرة؛ كان في الحقيقة شبكة طرق تذهب عموماً إلىٰ الشرق والغرب ولكن برغبة إلىٰ جنوب إيران، السهل الشمالي الفارسي (Furasian)، وجنوباً إلىٰ كوش الهندوسية إلىٰ شبه القارة الهندية).

ريتشارد سي فولتز (Richard C. Foltz) «Religions of the Silk Road: Overland Trade and Cultural Exchange from Autiquity to the Fifteenth Century,» (St. Martin's, 1999) ص 1 و2 وأماكن مختلفة.

(17) فولتز (Foltz) وديڤيد ليرنر (David Lerner) وهانز سبير (Hans Speir) «Religions of the Silk Road» ص 6 ـ 7.

(18) هارولد لاس ويل (Harold Lasswell)، إعداد: «Propaganda and Communication in World History», Vol. 1: «The Symbolic Instrument in Early Times» (University Press of Hawaii, 1979) ص 10 ـ 11.

(19) من الفرصة المؤاتية الرومانية، قسمت مصر إلىٰ منطقتين، الإسكندرية اليونانية اليهودية، وأراض داخلية شاسعة سكنها المصريون الأصليون.

بالسدون (Balsdon)، ص 68 ـ 69 «Romans and Aliens».

(20) حوراني (Horani)، ص 26 ـ 29، «A History of the Arab Peoples».

(21) من أجل وضع اليهودية المنافس في العالم الروماني قبل القرن الخامس الميلادي، راجع مثلاً: كينان ت. إيريم (Kenan T. Erim)، وجويس رينولدز (Joyce Reynolds) وروبرت تانينبوم (Robert Tannenbaum)، إعداد

«Jews and Good-Fearers at Aphrodisia: Greek Inscriptions With Commentary -- Texts from the Excavations at Aphrodisia» (Cambridge, U. K. Philogical Society, 1987)

جوديث ليو (Judith Lieu) وجون نورث (John North) وتيسا راجاك (Tissa Rajak) إعداد

«The Jews among Pagans and Chritians in the Roman Emprie», (London: Routledge, 1994).

(22) يضع المحلِّلون للاتصالات هارولد لاس ويل وديڤيد ليرنر وهانز سبير اختراع غوتنبرغ كان «ربما أكثر أهمية في تاريخ البشرية من الحدث الجغرافي الذي صادف كولمبوس. لأن الطباعة المنقولة مكّنت انتشار القراءة والكتابة التي أنتجت شعار الثلاثة 'reading, (R) riting, rithmetic' ـ القراءة الكتابة والحساب ـ التي أصبحت السِّمة المميزة للحضارة الغربية ويمكن أن تصبح فرضية بقاء الإنسان علىٰ هذا الكوكب».

لاس ويل ولينر وسبير، ص 16، «Propaganda and Communication».

(23) دياموند (Diamond) ص 372 ـ 73 «Guns, Germs and Steel». طبعاً لم تكن تقنية بناء السفن بحد ذاتها العامل الحاسم في الدافع للتجول علىٰ الكوكب. كانت الصين متقدمة في تطوير السفن بمدىٰ عبر القارات في أوائل القرن الخامس عشر، أسطول الأميرال تشين هو غامر حتى زنجبار في رحلته العاشرة فيما بين 1405 و1433. لكن الصِّين قرَّرت

منع بناء السفن الكبيرة والتخلي عن الاكتشافات ومتابعة التجارة الخارجية. كما يلاحظ المؤرخ پول كينيدي (Paul Kennedy) سفن تشن هو «كان من الممكن أن تبحر حول إفريقيا «وتكتشف» البرتغال قبل بضعة عقود من بدء بعثات هنري البحار بالاندفاع إلىٰ جنوب سيوتا». بول كينيدي، The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 (Random House, 1987) ص 6 ـ 7.

(24) ستيفن كيرن (Stephen Kern)، «The Culture of Time and Space, 1800-1918» (Harvard University Press, 1983).

(25) نفس المصدر، الفصل 3.

(26) ستوارت هال (Stuart Hall) في كتاب من إعداد آ. د. كنغ (A. D. King)، «The Local and the Global: Globalization and Ethnicities,» «Culture, Globalization and the World System» (London Macmillan, 1991) ص 19 ـ 31.

(27) تحتفظ فرنسا بحضور ثقافي عالمي هام، أولاً في الدول الناطقة بالفرنسية وأشباه الدول (مثل كيوبيك)، لكن امتدادها محدود بالعالم الناطق بالفرنسية، وعطاءاتها (كما يلاحظ في النص التالي) ليست جذّابة علىٰ المستوىٰ الشعبي بالمقابلة مع جماهير النخبة.

(28) مارتن و. لافورس (Martin W. Laforce) وجيمس آ. دريك (James A. Drake)، «Popular Culture and American Life: Selected Topics in the Study of Popular American Culture (Nelson - Hall, 1981) ص viii.

(29) بيرنارد بيلين (Bernard Bailyn)، «The Peopling of British North America: An Introduction», (Vintage, 1985)، ص 95 ـ 97.

(30) إعداد روب كوريس وآخرون، (RobKores)، «Questions of Cultural Exchange: The NIAS Statement on The European Reception of American Mass Culture,» in 9Rob Kores). «Cultural Transmissions and Reception: American Mass Culture in Europe,» (Amesterdam: VU University Press, 1993) ص 323.

(31) برنارد بيلين وآخرون (Bernard Bailyn)، «The Great Republic: A History of the American People,» 4th ed. (DC Heath, 1992) ص 229.

(32) انظر مثال ماديسون غرانت (Madison Grant) «The Passing of the Great Race: Or, the Racial Basis of European History», (Charles Scribner, 1916).

(33) مثلاً السينمائي المغولي صاموئيل غولدوين (Samuel Goldwyn)، (صاموئيل غيلبفيس) من وارصو، طفل لوالدين يهوديين أمضى سنيه الأولى في أمريكا كبائع قفازات قبل أن يدخل في صناعة سينما الأطفال، لم يكن علىٰ دراية بالفن العالي، لكنه هو وزملاؤه عرفوا أذواق الأمريكيين المتوسطين وكذلك كان لديهم شهية لا حدود لها للمال لإرضاء هذه الأذواق. انظر مثلاً، آ. سكوت بيرج (A. Scott Berg) «Goldwyn» (Knopf, 1989)، وكذلك نيل غابلر (Neal Gabler)، «An Empire of Their Own: How the Jews Invented ollywood» (Crown, 1988).

(34) ويل هيس بابرز، 11 (Will Hays Papers, 11)، بكرة 19 إطار 1167، مقتبس في جون ترمبور (John Thrumplour)، «Death to Hollywood: The Politics of Film in the United

obeikandi.com

States, Great Britain Belgium and France, (1920-1960)» Ph. D. dissertation, Harvard . University, 1996, P. 25

(35) وليام ريد (William Read)، «America's Mass Media Merchants (John Hopkins University . Press, 1976) P. 9

(36) إيميلي روزنبرغ (Emily Rosenberg)، «Spreading the American Dram: American Economic and Cultural Expansion, 1890-. 1945» (Hill and Wang, 1982), Chap. 5

(37) أسست الحكومة الفرنسية (Alliance Française) في سنة 1883، وأسَّست إيطاليا (Societé Dante Alighieri) في سنة 1889، وأسَّس الألمان (Goethe Institut) مما يدعو للسخرية في سنة 1932 قبل تولي النازية ببضعة أشهر، والبريطانيون أسَّسوا (British Council) في 1934.

(38) من أجل فترة الحرب، انظر مثلاً روزنبرغ، وكذلك كوستى غليولا (Costigliola)، «Awkward Dominion: American Political, Economic and Cultural Relations with Europe», 1919-1933 (Cornell University Press, 1984) Chaps. 5

وكذلك إيان جارفي (Ian Jarvie)، «Hollywood's Overseas Compagn: The North Atlantic Movie Trade, 1920-1959 (Cambridge, U. K. (Cambridge University Press, 1992)؛ ولفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية انظر مثلاً: جارفي وترمبور Death To Hollywood؛ الفصل 3 (Hollywood's Overseas Compaign

وبول سوان (Paul Swan) «The Little State Department: Washington and Hollywood: Rhetoric of the postwar Audience.

في كتاب من إعداد ديڤيد ايلوود (David Ellwood) وروب كريس (Rob Kroes)

«Hollywood in Europe: Experience of a Cultural Hegemony», (Amesterdam: VU . University Press, 1994)

(39) نيستور كارسيا كانكلني (Nestor Garcia Canclini)، «North Americans or Latin Americans? The Definition of Mexican Identity and the Free Trade Agreements,» في كتاب من إعداد:

ايملي ج ماكاناني (Emily G. McAnany) وكنتون ت، ولكنسون (Kenton T. Wilkinson)، «Mass Media and Free Trade: NAFTA and the Culture Industries,» (University of Texas Press, 1960) ص 149 ـ 150.

(40) بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، العاملون في صناعة الفيلم في الولايات المتحدة كانوا يخدمون في القوات المسلحة، قدموا جهداً لمنع صناعة الفيلم في دول المحور، وخاصة ستوديو أوفا الألماني، من الرجوع والوقوف علىٰ أقدامها لأسباب أيديولوجية. لكنهم في الواقع أعاقتهم حكومة الولايات المتحدة من تنفيذ خطتهم بالكامل، راجع مثلاً إيان جارفي «Free Trade as Cultural Threat: American Film and TV Exports in Post-War Period» (Steven Ricci)، ص 37 ـ 38، «Hollywood and Europe: Economics, Culture, National Identity 1945-95», (London: BFI Publishing, 1998).

(41) ماكاناني وويلكينسون، «Introduction» في كتاب ماكاناني وويلكينسون ـ إعداد.

Mass Media and Free Trade», Page 3, 7;

وكذلك كارسيا كانكليني في كتاب ماكاناني وويلكينسون ص 149 ـ 154.

وريتشارد بيلز (Richard Pells)، «Not Like US: How Europeans have loved, Hated and Transformed American Culture since World War II», (Basic Books, 1997) p. 273 - 77.

لقد خسر كانتور المفاوضات حول الصادرات الأمريكية الثقافية دون قيود إلىٰ المشاركين في الغات، لكنه خاض معركة قاسية قبل أن يستسلم.

(42) جيفري نويل سميث (Geoffery Nowel-Smith)، «Introduction» في كتاب من إعداد نويل سميث وريتشي: ص 6، «Hollywood and Europ».

(43) بيلز (Pells) «Not Like US» ص 210 ـ 211، و227.

(44) روزنبرغ، «Spreading the American Dream»، ص 100.

لم يبتعد تحليل روزنبرغ عن تأكيدات هيئة السينما الأمريكية بخصوص سر السينما الأمريكية الفريد في النجاح العالمي. ومقابلة المؤلف لنائب رئيس الهيئة (MPEA) السيد س. فريدريك غرونيش، 7 تشرين ثاني 1995.

(45) المؤرخة الثقافية فيكتوريا دي غرازيا (Victoria de Grazia) تقارن النماذج الأمريكية والأوروبية في إنتاج السينما في فترة الحرب: «وقفت السينما الأمريكية للاقتصاد الكبير والتكنولوجيات المعتمدة علىٰ رأس المال وعلىٰ التقييس، وفضلت القصص التي فيها حركة وركَّزت علىٰ النجم وانتقلت إلىٰ جمهور من مختلف الطبقات. والمروجون لها محترفون تشكلوا خارج المراكز التقليديَّة للثقافة، وهم علىٰ علم وثيق بمشكلة تسويق منتجاتهم. بالمقابل يعرف التقليد الأوروبي باستوديوهات فنية لامركزية وترتبط بتقاليد المسرح والدراما وموجهة إلىٰ الجماهير المعرفة جيداً». دي غرازيا «ثقافة الجماهير والسيادة» في مجلة «Journal of Modern History» (آذار 1989) ص 61. وكانت وجهة نظرها لا تقل صحة في فترة ما بعد الحرب أيضاً. ففي الثمانينيات والتسعينيات اشترى روبرت موردوك (Rupert Murdoch) وهو أسترالي يقيم إدارته الرئيسية في بريطانيا مختلف فروع فوكس كوربوريشن، واشترت EMI البريطانية كابيتول ريكوردز، وحصلت بيرتلزمان الألمانية علىٰ البانتام ودبل دي وديل بابليشر أيضاً علىٰ نادي الكتاب ليتراري غيلد. Pells, Not Like US ص 320 ـ 321. وجدير بالملاحظة أن روبرت مردوك حصل علىٰ الجنسية الأمريكية، وبرتلزمان وهو الرئيس التنفيذي لتوماس ميدلهوف أشار إلىٰ نفسه في خطاب في 1999 بجامعة هارفارد ـ مدرسة كينيدي للحكومة بأنه «أمريكي بجواز سفر ألماني» فأثار السؤال إن كانت الملكية الأجنبية لوسائل الإعلام الأمريكية تنتج بكل بساطة (الكلب الذي يهز ذيله).

(46) إضافة إلىٰ الروس الذين لفترة طويلة أثاروا اهتماماً كبيراً في هذا الجنس الفني:

إسماعيل ميرشانت «Kitshy as Ever, Bolywood Is Branching Out» (نيويورك تايمز عدد 22 تشرين ثاني 1998 القسم 2، الصفحة 15). يجب ملاحظة أن المجتمع الهندي الغريب يؤلف جمهوراً عريضاً ـ مثلاً في 1998 واحد من أفلام بولي وود (Dil Se) أصبح أول فيلم هندي يصل إلىٰ قائمة العشرة الأوائل في بريطانيا. وتبع نجاح Dil Se نجاح Kuch Kuch

obeikandl.com

Hota Hai الذي اشتمل على مشاهد صورت في إسكتلندا «Planet Bollywood» في Marketing Week، لندن 18 آذار 1999، ص 35.

(47) يشرح محلل وسائل الإعلام الإعلامي جيريمي تانستول (Jeremy Tunstall): «تحتوي الإنكليزية تنوعاً أكبر من عبارات بليغة وكلمات بسيطة يمكن أن تختار منها (إذا قورنت بالفرنسة مثلاً) والنسخة الإنكليزية هي عادة أقصر من النسخة بأي لغة أُخرىٰ» وللإنكليزية قواعد أبسط من أي لغة منتشرة، الإسبانية فيها 14 زمناً منفصلة مثلاً مقابل 6. ويقترح تانستول، «الإنكليزية لغة مناسبة جداً لنصوص كوميكية، وعناوين، جمل أولى طريفة، تمسك بالصورة، وتسجيل وترجمة وأغاني شعبية، إعلانات طرقية، مزاح عامل الموسيقى والأسطوانات، ومضات الأخبار، إعلانات مغناة». جيريمي تانستول:

«The Media Are American: Anglo-American Media in the World» (London, Constable, 1977), p. 128;

وكريستوفر كيندريس (Christopher Kendris)، «501 Spanish Verbs» 3rd ed. (Barron's, 1990) ص xx.

(48) تانستول، «The Media Are American»، ص 127.

(49) لقد سحرت كاليفورنيا وقدمت التسلية للمراقبين الأجانب؛ وأشار الصحافي الإيطالي لويجي بارزيني إلىٰ الولاية «عالم جديد نظيف حيث كل شيء سهل ومسموح، وحيث التقاليد المحرجة وأخطاء الماضي منسية، اللوح الفارغ الذي تبدأ بالكتابة عليه من جديد». وكتب كريستوفر ايشروود (Christopher Isherwood): «هناك في الخارج صباح المحيط الهادي الأبدي والكسول، تهرب الأيام إلىٰ شهور، والشهور إلىٰ سنين... قد يمضي المرء حياته... بين تثاؤبين... مستلقياً عارياً برونزياً علىٰ الرمال». كلا النصين مأخوذ من بيلز (Pells) ص 165 ـ 166 «Not Like US». وقد يكون من الممتع أن نرىٰ أن كامل مسلسل (Bay watch) يعطي السحر نفسه للمشاهدين الأجانب، وانتقل الإنتاج إلىٰ أستراليا كما كان بالأصل مقرَّراً.

«Its Economy Ailing, Hawaii Hangs Some Hopes on Hollywood» (في نيويورك تايمز، 17 أيار، 1999) ص A1.

(50) انظر مثلاً، سي. ف. إي بيغسبي (C. W. E. Bigsby)، «Superculture: American Popular Culture and Europe,» (London: Elek, 1975) ص 12 ـ 13.

كوستي غليولا، (Costigliola)، «Awkward Dominion»، ص 167.

وبيلز، «Not Like US»، ص 163 ـ 168.

(51) مثلاً «My Cousin Vinny»، فيلم كوميدي 1995 حول محام غير مسجل بالاتحاد من بروكلن الذي يستخدم أذكياء الشارع ليدافع عن متهم بجريمة قتل في مدينة جنوبية يرئسها قاض متخرج من ييل، كان هذا الفيلم ناجحاً جداً بالصين عندما سجل فيني المحامي البسيط ولكن الذكي بلهجة محلية والقاضي المتكبر بلغة المندرين الرسمية.

(52) في الفيلم القنبلة في الخيال العلمي في 1996، عيد الاستقلال، طائرة F-16 من القوىٰ الجوية في الولايات المتحدة تقصف سفناً حربية غريبة من السماء، وتنقذ النوع البشري.

ما هي فرصة وجود أي متحد أرضي؟ طبعاً، إن الصورة قريبة من القوة التي لا حدود لها أن ترد على النار: مثلاً: كثير من الصينيين يعتقدون بأمانة أنه مع التكنولوجيا الأمريكية المتقدمة لا يمكن أن يكون قصف السفارة الصينية في بلغراد حادثاً عرضياً.

(53) في 1995 مثلاً سعت سفيرة الولايات المتحدة إلى إيطاليا (كلير بوث لوس) أن تمنع الفيلم Blackboard Jungle من مهرجان ڤينيسيا السينمائي لأنه يصوّر طيش وتقصير المراهقين في لندن (لكنها فشلت في مسعاها).

(54) «When Its Customers Fell Ill, a Master Marketer...»، نيويورك تايمز، 30 حزيران 1999، ص A1.

(55) برنارد بيلين، «The Origins of American Politics» ـ (Vintage Books, 1968)، فصل 1.

(56) «Net of Fame: Who Rules the Web? Pamel A. L,»

في وول ستريت جورنال 14/ 4/ 199 ص «The B-Movie Actress» A1.

(57) صرح جوزيف غوبلز في 1940، «يجب أن نعطي الفيلم الألماني واجباً ومهمة حتى يمكننا استخدامه في التغلب على العالم. وعندئذ فقط سنغلب أيضاً الفيلم الأمريكي». اقتباس من إيريك رينتشلر، «The Ministry of Illusion: Nazi Cinema and Its After life». (Harvard University Press, 1996) ص 215.

جوزيف ستالين ذكر صراحة «إذا استطعت السيطرة على وسيلة الفيلم الأمريكي، فلن أحتاج إلى شيء آخر لأحول العالم بأجمعه إلى الشيوعية». اقتباس ترمبور «Death to Hollywood» ص 4. وحديثاً مدح الرئيس الصِّيني جيانغ زيمين فائدة الفيلم Titanic، بأنه ضربة في شباك التذاكر في الصين، واللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي تعلن «دعونا لا نفترض أننا لا نستطيع التعلم من الرأسمالية»، الغارديان 27 نيسان 1998، ص 10.

(58) بالطبع، بدون وصول إلى وثائق ديزني الداخلية حول الموضوع، لا يمكننا أن نتأكّد تماماً بأن مولان قد أنتج لتطييب خاطر حكام الصِّين الذين أصابهم أذى. ولكن هناك ترابطاً ما بين غضب بكين من كوندون واختيار ديزني موضوع فيلمه التالي.

(59) نـيـل م. روزيـنـدروف (Neal M. Rosendorf)، «A Study in International Character and Influence of Hollywood: The Life and Times of Samuel Bronston, Epic Film Producer». (Harvard University, 2000) أطروحة دكتوراه (فصل 6 ـ 9).

(60) الذي أعطى إنتاجات هوليوود مثل «Force 10 From Navaron» 1979 بطولة هاريسون فورد وروبرت شو، والذي صوّر بصورة غير صحيحة، اليوغسلاف الموالين للملكية، ومجموعات مقاومة الشيوعية (Chetnik)، كمتعاونين مع النازية خلال الحرب العالمية الثانية، وهذا انعكاس لقائد الحزب السابق تيتو وحملات الدعاية الطويلة ضد منافسيه أثناء الحرب.

(61) جوزيف س. ناي الابن، «The Power we must not Squander»، في نيويورك تايمز 3 كانون ثاني 2000، ص 19. من أجل وصف كامل للقوة اللينة كمفهوم، انظر جوزيف ناي الابن،

«Bound to Lead: The changing Nature of American Power» (Basic Books, 1990)، ص 31 ـ 33 و 190 ـ 95.

(62) انظرَ مثلاً توماس ل. فريدمان، «The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization« (Farrar, Straus, Giroux 1999)، فصل 10.

وفيه يكرر بحماسة، «Golden Arches Theory of Conflict Resolution» التي قالها أول مرة بتحفّظ نوعاً ما في 1996: ما من دولتين دخلتا الحرب لأن كلاهما كسبتا محلاً بترخيص ماكدونالدز. انظر أيضاً جيمس واطسون (James Watson)، Golden Arches East: McDonald's in East Asia (Stanford University Press, 1997);

تـوم أوريـغـان (Tom O'Regan)، «Too Popular by Far: On Hollywood's International Reputation» (Continuum, vol. 5, No. 2, 1992).

بيلز «Not Like US» (Pells).

وريتشارد كويسيل (Richard Kuisel)،

«Seducing the French: The Dilemma of Americanzation» (University of California, Press, 1993).